مُحمد سَعِيد الرّيْحَانِي

العودة إلى البراءة

(مجموعة قصصية)

موقع رَيْحَانِيات

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
http://www.raihani.ma

النصوص

العودة إلى البراءة

عالم حالم

عاشق

شرفة على القلب

الأرض تتكلم لغتي

زهرة الذاكرة وشراب الخلود

حديقتي، مملكتي

حلم عصفور

مدرسة الحرية

هكذا تكلمت سيدة المقام الأخضر

موعد مع الفرج

العودة إلى البراءة

" ما معنى أن تكون لنا أم؟ أجب من غير أن تلجأ إلى فرويد ولا إلى النصوص المقدسة؛ واجب في غيبة الأب، ودون أن تلجأ إلى العقل المحلل ولا إلى الحاسوب. أتلعثم وأسهو. الأم لا يسأل عن سبب وجودها، أتمتم. تملأ الحيز الهش، العطوب، في نفوسنا وتجعلنا نرى المعنى حيث تنتفي الدلالة، وتتداعى الترابطات. وأقول الآن إنها كالشعر: رغبة في معانقة المطلق، تفتح لنا أبوابها بالذات عندما تبدو الأبواب جميعها موصدة."

محمد برادة
" لعبة النسيان"
ص125

كان يا ما كان في قديم الزمان، بين جنان الشجر والشلالات والوديان، كائن سعيد يحاور الطير والنسائم والأغصان بعنفوان، موائده فواكه الشجر ولحوم الحيوان، حفلاته يومية أجواقها الطيور الطليقة والنحل الطنان، لم يسمع في يوم من الأيام لغيرها من الألحان، معاجمه كلمتان: **فرحان / شبعان**، حاجاته بسيطة لا تقبل التأجيل أو الحرمان.....

ثم كان أن اكتشف فجأة اللهب، فلم ينتبه لنفسه إلا وساقاه تطلبان الهرب، حتى إذا استدار وجد الغابة خلفه تحترق في صخب: اختناق الحيوان واحتراق النبات والأعشاش والخشب، وكل الأشجار حطب على حطب، جحظت عيناه وهو خلف الصخر يرقب هذا العجب، هل هو الفاعل؟ هل هو السبب؟ هل هذه هبة ضلت طريقها أم لعنة أم عطب؟ ثم انتبه للمساحات المحترقة و الضواري المتفحمة وأنين كل ما هب ودب ، فانفرجت أساريره وهو يرفع كفيه للسماء صائحا في صخب: " هذه تفاحتي المحرمة، هذه عصايا السحرية، هذه أم اللعب"...

وكان أن أحس لأول مرة تلك الليلة بمتعة الدفء والضياء، متعة لا يستشعرها إلا من عاش طويلا في الدهماء، فاستل حطبة ملتهبة صالحة للدفء والشواء، ثم شرع يشوي القنافذ ويزدردها باشتهاء، يا للذة! يا للمتعة! يا للانتشاء! كيف كان يطيق أكل اللحم دون شواء؟ يا لضياع أمسه! يا للغباء! لكن ذلك كان قدرا وهذا لا يحتاج لكثير من الذكاء، أما اليوم فقد صار مركز الكون وهذه النار أولى هباته من السماء.

نار، خير الهبات، خير الهدايا، خير السلط. لا شيء يوقف زحفه بعد الآن: لا الأدغال ولا الضواري ولا الظلام بعدما سقط، ثم صاح: " أنا مركز الكون وما دوني هوامش لاحق لها في محاسبتي على غلط، لست إنسان الغاب بعد اليوم: أنا مالك المفاتيح، أنا صاحب السلط، ومن السماء تأتيني الهبات والإلهام والخطط؟ وهذا إلهامي الجديد:سأحرق هذه الغابات وأنفي تلك الضواري، هل من شطط؟ سأبني مسكني وأربي ما شئت من بهائم ومواش وبط، وسأروض الباقي لخدمتي: فالجواميس بقر والذئاب كلاب والأسود قطط، وستصبح كل هذه الدنيا لها وحدها فقط، فلتعلف ما شاءت ولترعى حيثما أرادت فلن تخاف ذئابا ولا أي رهط، فلتعلف ولتسمن ولتتكاثر فمعدتي الآن تهضم الفراغ ولعابي قد سقط، أنا مركز الكون فشكرا لله على اختياري مجددا للدنيا ومخلصا إياها من القنط"...

ثم بدأ حربه المقدسة: ماشيته في النبات تعبث وهو في الضواري يبيد، وينكح من الإناث ما طاب له سعيا للتكاثر والتأبيد، " البنون: زينة الحياة الدنيا وقبيلة للدفاع عني بالنار والحديد، البنون: استثمار بشري لدرء المخاطر في مجاهل الغد البعيد، البنون! البنون! نعم الإيقاع ونعم التغريد"...

وبدأ التناسل وبدأ التكاثر وبدأ الانفجار، انفجار هز التواثب وتجاوز الحدود والأسوار، انفجار السكان والاستهلاك والنفايات والدمار، انفجار المطالب اللانهائية والحاجات المترفعة عن كل شرط أو معيار: الحاجة إلى المعادن، إلى المياه إلى الأخشاب إلى الأحجار، تلبية لتزايد المطالب وسعيا للمزيد من الإعمار، وبدأت تطل من القمقم أصناف جديدة من السموم والأضرار، السموم دخان أسود يتصاعد من كل الأقطار، من عوادم السيارات وفوهات المعامل ومداخن الديار، السموم نفايات تبدأ أولى رحلاتها في مجاري الأنهار، تقتل وتبيد وتعبث وتحيل الحياة في المياه إلى قفار، السموم سليلة التجارب النووية والمناورات العسكرية والحروب وتلك أشكال الاستهتار، السموم ماذا عساها تكون إذا شئنا كشف كل الأسرار؟ السموم ماذا عساها تكون غير تجل كيميائي لأمراضنا: لأمراض العواطف والأفكار؟ السموم حوالينا تعبير عما وصلت إليه الرحلة الاستنزافية من انهيار، السموم حوالينا هي سموم اختيار، السموم حوالينا هي سموم استثمار...

هل تسمعون سعال المختنقين وأنين المرضى وأسئلة الحيارى؟

هل ترون النزوح الجماعي والتصحر والتملح والتعرية والمجاعات والأوبئة تنخر الأبرياء صغارا وكبارا؟

هل تحسستم المسخ ينخركم نخرا ويقذف بكم إلى الموت انتحارا؟

هل تصفحتم قواميسكم وتوقفتم عند خطر التلوث والاستنزاف مرارا؟...

وهكذا عاد صاحبنا الإنسان، بطل الحكاية وقد تمكن منه الذنب والخذلان، لجادة الصواب طالبا الصفح والغفران، داعيا لقيم غدوية مرجعها قدسية الأم – البيئة كعنوان يعلو فوق كل القيم في كل زمان ومكان، شعاره: " توازن النظام البيئي شرط أساسي لاستمرارية الإنسان".

وعلى كل من لازال عند مفترق الطرق أن يختار ما بين الانتماء إلى قفار أو مزبلة أو جنان.

9 ماي2004

عالـــم حالم

هل اتخذت الغاب مثلي　　منزلا دون القصـور
وتـــتبعت السواقـــي　　وتسلقت الصـخـــور
هـــل تحمـــمت بعطر　　وتنشفت بنــــــور
وشربت الفجر خـمرا　　في كؤوس من أثير

جبران خليل جبران
- أعطيني الناي-

السكينة أو اللطافة أو النقاء هي أسماء متعددة لمسمى واحد: نسيم عليل بابه الأفق الأزرق الرحيب ومدرجه الأشجار المتنوعة الأصول والأشكال المتراصة في كل مكان في هذه المدينة الآمنة، في حدائق المنازل، في الساحات والحدائق العامة، على الطرقات، في البساتين، على الجبال المتاخمة للسماء...

حفيف أوراق الشجر، تحت لمسات الهواء العليل، يملأ الكون تصفيقا خفيضا وهمسا عاشقا. لا صوت يعلو على حفيف الشجر وضحك الأطفال وهم يجرون بسعادة ظاهرة بين الأشجار الباسقة في الساحات والحدائق العامة ويتمرغون كالقطط الآمنة على العشب الندي تحت دفء الشمس الوديعة.

أسراب من النساء والرجال، بملابس رياضية، تصل بين الفينة والأخرى في ركض خفيف إلى جنبات الحديقة العامة. يجرون بانسجام وتوازن ثم يتوقفون ليتنفسوا ملء الرئتين هدية السماوات العلى. يجددون وجودهم بالشهيق والزفير ويتبادلون النسيم بالنسيم. حتى إذا ما تجددوا هواء وحيوية، علت البسمة وجوههم من الرضا وواصلوا الجري دونما تسابق أو تخاذل حتى ينعطفوا خلف الأشجار الوارفة الظلال والورود المتشابكة السيقان حيث يجلس آباء وأمهات الأطفال في انتظار وصول الناقلة.

بعض الآباء والأمهات يجلسون مستندين على جذع شجرة متشابكي الأيدي في حنين لذكريات لا تزال مشعة في لمعان العين وحرارة اللمسة وبياض البسمة. وبعضهم ينشد التوحد مع الصفاء: ينقر بمسمار معدني جرسا نحاسيا صغيرا يتدلى بين الإبهام والسبابة ثم يصغي للرنين الصافي وهو يتناقص ويتناقص ويتناقص حتى إذا ما تلاشى أثر الصوت أعاد النقر والإصغاء للرنين الذي ينقله إلى الصفاء البعيد والتجدد الكامل. وبعضهم الآخر ممدد على العشب الأخضر يستمتع بخيوط الشمس الذهبية تلعق جلده والنسيم يعبث بشعره وزقزقة العصافير وحفيف الشجر ورنين الأجراس الصغيرة ينقي مسامعه فلا يتنبهون لمرور الزمن إلا على وقع نفير الناقلة المنضبطة لمواعيدها انضباط الفصول في التعاقب والشمس في الشروق والمطر في الهطول والمياه في الانسياب والربيع في النمو والأزهار في التفتح والطير في اللقاح...

سائق الناقلة، يعي جيدا سبب تخلي سكان المدينة عن سياراتهم الخاصة ودراجاتهم النارية. فهم لا يمكن أن يكونوا قد تخلوا عنها بسبب الإجراءات والتضييقات الجبائية الجديدة ما داموا هم أول من طالب بها: الضرائب العالية على السيارات القديمة، التسعيرة العالية لمواقف السيارات، العمل بالبنزين الخالي من الرصاص وحده دون سواه بعد حظر استعمال أنواع الوقود الرديء ذي الضرر العالي والذي تسبب في أمراض سرطانية لعدد غير قليل من سكان المدينة.

لا هذا ولا ذاك. فسكان المدينة واعون بمسؤولياتهم اتجاه ما ورثوه من ثروة كبيرة: بيئتهم. ولذلك كان عليهم التحلي بالشجاعة اللازمة للحسم في مستقبلهم: فإما أن يحافظوا على هذا الإرث وإما أن يدمروه. ولوعيهم بأنهم هم أنفسهم البيئة التي تنتظر منهم الحسم في قراراتهم، فقد انتصروا لمبدأ الحفاظ على البيئة وحمايتها وتخلوا عن مشاريع التباهي بالسيارات وتسميم الهواء والشجر والبشر بعوادمها واتفقوا على أن تستغل السيارات فقط لنقل أكثر من ثلاثة ركاب، كما تم الإجماع على اتخاذ وسائل النقل العمومي وسيلة أساسية للتنقل والتحرك داخل وخارج المدينة.

عنترة، سائق الناقلة، يعرف كل هذا. بل هو يساند هذه الخطوة نحو التطهير الشامل للبلاد والعباد. فهو يؤمن إيمانا راسخا بأن التطهير لا يمكنه أن يبدأ إلا من تطهير البيئة، بيئة النهر والنبتة والإنسان. البيئة الطاهرة، في نظره، لا تنتج إلا كائنات جميلة وعواطف طاهرة وثقافات حقيقية. ولإحساسه بدوره الخطير في إمكان حدوث ردة لدى سكان المدينة عن هذا الميثاق، يحرص عنترة أكثر من كل أمر على الانضباط لمواعيد الانطلاق والوصول إلى المحطات الفرعية والنهائية. بل هو يحرص أيضا على تذكير الركاب بأنه على وعده حتى الموت وأنه لا ردة عما اتفق عليه مهما كانت الظروف والتبريرات.

من نوافذ الناقلة، تطل الشمس المسائية تارة من زجاج الجهة اليمنى وتارة من الجهة اليسرى على وجوه الأطفال وقد ناموا، مطمئنين، على حجور أمهاتهم اللواتي توصلن اليوم صباحا برسائل تهنئة من إدارة المدرسة ليس فقط بمناسبة نجاح أطفالهن في دراستهم بل بهذا النبوغ الجديد والمتجدد الذي اختار أبناءهن فجأة. فقد أصبح الأطفال، بشكل استثنائي، قادرين على كل شيء: دقة الملاحظة، التفكيك، التركيب، روح المبادرة... كما تخلصوا من عادات سيئة كقضم الأظافر ومظاهر فزيولوجية مرضية كالسمنة والشحوب لفرط مكوثهم داخل البيت قبالة التلفاز لصرف انتباههم عن اللعب في الخارج مخافة حوادث السير ... ومع ذلك فلا أحد من الإداريين أو الأساتذة في المدرسة توصل لتفسير ذلك: وحدهن الأمهات يملكن مفاتيح فهم هذا التغير ولذلك فهن يواظبن على الذهاب للحدائق والمنتزهات مع أطفالهن بعدما خفت آثار التلوث بالمدينة.

آخر المحطات.

وقوف الناقلة.

سكوت المحرك عن الهدير.

الأمهات توقظ أطفالهن، استعدادا للنزول. يحرس عنترة، السائق، على تذكير النازلين من الناقلة، والبسمة لا تفارق محياه بوفائه بوعده وأنه لا ردة بعد اليوم. لكنه لا ينسى أن يسألهم عن مصادرهم في الطاقة ومشاكلهم معها في البيت. حتى إذا ما اندلع الحديث بين الناس وعبروا عن ارتياحهم لمصادر الطاقة النظيفة البديلة للكهرباء، قال:

- الشمس بالمجان، كانت وستبقي. وهي تعطي دون أن تطلب. ومع ذلك فنحن نحترس في الاستفادة منها في أمورنا المنزلية!...

فأيده آخر:

- عندنا الشمس وعندنا الريح وعندنا الماء وعندنا كل مصادر الطاقة النظيفة المتجددة ولكن حين يكون التلوث سلوك يومي فلا يمكن الإضاءة إلا بمصادر طاقة ملوتة...

وتدخلت امرأة لتختم وقد وطأت قدماها الأرض:

- قولوا " كنا عميانا" وكفى. فالأعمى لا يدرك درجة الحرمان الذي يحياه إلا بعدما تبصر عيناه النور. آنذاك يقارن بين فترتين من حياته ويندهش لكونه كان يقبل الحياة طول تلك المدة في الظلام...

قالتها ثم ابتعدت عن السائق الذي كان يستعد للانطلاق وفي قرارة نفسه ترن عبارة المرأة الحكيمة: " كنا عميانا". ثم همهم وهو يحرك عجلة القيادة جهة الشارع الهادئ ليعاود الرحلة الدائرية وليثبت للأفواج المنتظرة من الركاب أنه على وعده إلى الأبد وأنه لا ردة إلى الماضي:

- كنا عميانا، نعم. ولكننا أبصرنا النور وهذا ما سنورثه للأجيال القادمة.

4 ماي 2004

عاشق

" إن حلمي الوحيد، طموحي الوحيد، هو أن يكون لي مرصد وحديقة ورود، وأن أتملى السماء وفي يدي كأس وإلى جانبي حسناء."

عمر الخيام في رواية **"سمرقند"**
لأمين معلوف
(الترجمة العربية، ص41)

شيء خفي يوجهني هذا المساء نحو هذه الشجرة الوارفة الظلال. قوة مغناطيسية تجذبني للخلوة تحت أغصانها الحكيمة... وأشعر بالأمان من مطاردات الفضوليين طيلة النهار:

- أنت شارد!....
- يدك باردة!...
- هل تحب؟...
- عاشق، أنت عاشق...

أستاذ الفلسفة، ذاته، أوقف درس اليوم لينبهني:

- انتبه يا ولدي، ركز انتباهك على الدرس كي تستمتع به، إنك لن تفهم شيئا ما لم تستمتع به. المتعة والفهم وجهان لقوة واحدة. فاستثمر قوتك وركز انتباهك على هذا الدرس داخل هذا الفضاء في هذه اللحظة: هذا، هنا، الآن...

نبض جذع الشجرة في ضلوعي يذكرني بالحكمة، وأجدني " الآن" أرقب " هذا" الغروب يحتضر "هنا".

الليل يلعق اختلاط الألوان في الأفق حيث بدأت النجوم سباقها بحثا عن موقع على رقعة السماء. النجوم تتغامر من على بعد سحيق. النجوم ليست كما كانت تبدو لي دائما: مجرد جمرات كبيرة تحوم في سواد الكون. للنجوم هذه الليلة، حياة أخرى خفية تنبض عشقا وغراما، فالنجوم الأكثر لمعانا كتلك النجمة الوحيدة هناك هي في الغالب نجمتان كما يقول علم الفلك الحديث: نجم برتقالي ونجمة زرقاء. نجمان يرتبطان بجاذبية خفية تشد هذا لتلك فيدوران حول بعضهما البعض في غزل صامت، مضيء... ربما النجوم لا تضيء إلا لكونها تعيش حبا. وربما لولا الحب لانطفأت جذوتها وتناثرت في الفراغ كباقي النجوم المحرومة، نيازكا وشهبا...

أنا الآن أستمتع بوميض النجوم وعشقها، عشق عمره الآن آلاف السنين بين نجوم على بعد آلاف السنين الضوئية ... تلألؤ النجوم يزين السماء ويضفي على ميكانيكية حركة الأجرام السماوية بعدا غراميا.

نبض الشجرة يسري في جذعي يدفق قوي جديدة في شراييني، يقويني، يكبرني، وسيصبح بإمكاني، بعد قليل، الإمساك بالقمر الذي بدأ الآن أولى دحرجاته على الأفق هنا بين كفي يدي.

دجنبر سنة 1991

الأرض تتكلم لغتي

"الأرض بتتكلم عربى جذورها جدود
مد اتوسع زى العود
انت الباكر والمولود
الأرض.. الأرض .. الأرض
الأرض بتتكلم عربى"

كلمات: **فؤاد حداد**
ألحان وغناء: **سيد مكاوي**

على الصخور، في انتظار القارب الذي سيبحر بنا نحو العدوة الأخرى من البحر، قال لي أبي مودعا:

- لقد ربيتك، يا ولدي، أحسن تربية وسهرت على تعليمك تعليما راقيا وتتبعت نجاحاتك على طول مسارك العلمي. أما الآن، وبعد كل هذا الجهد وكل هذه الشهادات العليا، لا أريدك أن تعيش بقية حياتك عاطلا غير قادر على الاستمتاع حتى بالحياة كما عشناها ونحن دون مستواك ودون طموحك...

ثم صاحبني لركوب القارب وهو يضع في مسامعي وصيته الأخيرة:

- الوطن، يا ولدي، ليس هو الأرض التي ولدت فيها. فحيثما وجدت الاحترام والتقدير والحياة الكريمة فثمة وطنك!

تنقلت على متن القارب الصغير كما تتنقل الرسائل في القنينات على أمواج بحار الدنيا وتبركنا بكل سواحل الكوكب وكنت حيثما حللت وجدت الاحترام والتقدير والحياة الكريمة التي لم انعم بها في بلدي مسقط رأسي ولكنني كنت دائما أحس بشيء ينقصني دون أن أعرفه حتى التقيت ذلك الراهب الطاوي في ذلك الساحل شرق العالم فشرح لي سبب غمتي الدائمة:

- تجار الغلات الفلاحية يميزون بين المنتوج الفلاحي الواحد بجنسيته. ولذلك، تراهم في الأسواق يفضلون الأرز الصيني والزيتون اليوناني والبصل المصري والموز الكامروني والبرتقال المغربي... إن الأرض هي التي تعطي الغلة، وهي لذلك ضامن جودة تلك الغلة في كل الأسواق.

قاطعته قائلا:

- وما علاقة غمتي بالغلات الفلاحية في الأسواق؟

فأجاب:

- إن الأرض التي تعطي الغلات الفلاحية هي ذاتها الأرض التي تعطي الغلات الإنسانية وتسم كلا حسب جنسيته بقسمات خاصة وسحنات خاصة وقامات خاصة وأذواق خاصة وإيقاعات خاصة... إن الناس ليسوا سوى "**سنابل آدمية**" أما الأرض فتبقى أم الجميع، بشرا وحيوانات وزرعا وثمارا...

قاطعته ثانية:

- طبعا، الأرض هي أم الجميع ما دام لا أحد يستطيع العيش في الهواء. إن الجاذبية تحتم علينا أن نكون موجودين على الأرض...

قاطعني الراهب هذه المرة، متحمسا:

- "**الجاذبية**" ! هذا هو المفهوم الذي كنت أود أن أصل إليه: "**الجاذبية**" !

ارتسمت على محيا الراهب الطاوي علامات إيجابية وهو يقتحم مجالي الإقليمي ويضع، بأبوة ظاهرة، راحته اليمنى على كتفي:

- سيدي، إن سنابل القمح والأرز والشعير والذرة ليست سوى أذرع للأرض في الهواء تسري في أنسجتها المياه ناقلة إليها معادن الأرض ورابطة المعادن في السنبلة بالمعادن في الأرض. وهذا ما أسميته أنت ب "**الجاذبية**".

ثم أضاف:

- إن المعادن التي تنقلها الأرض إلى سنابل الزرع بواسطة الماء للربط بينهما هي ذات المعادن التي تنقلها الأرض إلى السنابل الآدمية بواسطة الماء لتربط الإنسان بالأرض. وكلما اختلت هذه الجاذبية كان السبب هو اجتثاث السنبلة من تربتها أو إعادة غرسها في تربة غريبة... ولذلك، مثلا، تموت شجرة "**الأركانة** " إذا أعيدت زراعتها في غير تربة أرضها؛ ولذلك، أيضا، تشعر أنت بالغمة الغامضة لبعدك عن معادن الأرض التي بادلتها منذ ميلادك التأثير والتأثر والجاذبية والتجاذب...

كان الراهب الطاوي يتحدث وشريط الصور السحري يمر أمام عين عقلي فأرى أجدادي الذين عاشوا السعادة وورثوها لأبنائهم وأحفادهم يبنون القصور الطينية على سفوح جبال الأطلس الكبير بعدما توصلوا بالفطرة إلى أن من أحب الأرض وسقاها أرزقته غلات وفيرة، ومن أحب الأرض وبنى بيته بترابها وطلى جدران داره بلون طينها وشرب وأكل بأوان خزفية من صميمها، سكن الأرض وسكنته فعاش سعيدا حتى يوم وصية وداعه...

لما انتبهت للراهب، بدا لي أقرب إلى وجهي وهو يحدق عميقا في عيني خلال شرودي:

- سيدي، إن الأرض التي أنبتتك هي ذات الأرض التي ترضع منها القوة على تحمل الصعاب حين تضعف ذخيرتك من الصبر والاحتمال، وهي عين الأرض التي تشحنك بالطاقة حين تحل بها فتتفاعل المعادن التي تحملها أنت بالمعادن التي تحملها هي...

ثم التفت الراهب إلى القارب وأضاف:

- حافظ دائما على أن تحمل في جيبك دائما تذكرتين: **تذكرة ذهاب وتذكرة إياب**. **تذكرة ذهاب** إلى بلد مسقط رأسك تحيي بها صلة الرحم مع معادن الأرض التي تسكنك والتي ترسبت في جسدك ووجدانك وتفكيرك مع كل جرعة ماء شربتها وكل قطرة حليب رضعتها منذ خروجك للحياة. أما **تذكرة الإياب**، فاحرص دائما على استثمارها لإحياء صلة الرحم مع بني عمومتك من "**السنابل الآدمية**" الأخرى التي رضعت معادن أخرى من أراض أخرى من مناطق أخرى من هذا العالم. إن

المعادن التي تسكنهم قد تحتاجها أنت حين لا ينفع علاج مع عللك كما أن المعادن التي تسكنك قد تصلح لجبر ضررهم حين لا ينفع علاج مع أزماتهم...

ضمني هذه المرة الراهب الطاوي إلى صدره لينصحني النصيحة الأخيرة بعدما ثمن إصغائي المطلق لكلامه:

- عد إلى نبعك بين الفينة والأخرى وتزود بالقوة والطاقة التي تحتاجها ولا تنس العودة للقاء الأحبة الذين ينتظرونك في كل بقاع العالم. كل أراض العالم أرضك وكل سكان العالم إخوتك ولكنك لا يمكنك التزود بالقوة والطاقة إلا عبر زيارة التربة التي أنجبتك...

قبلت كتف الراهب الذي بدد غمتي وقفزت داخل القارب وفي كل جسدي دبيب مغناطيسي لأفكار وكلمات وصور سعيدة بدأت تغمرني:

" أنا شجرة "الأركانة "، أصلها ثابت في التربة التي أنتجتها وفروعها في كل أجواء الدنيا، تتغذى من تربة منبتها وتنفخ الحياة في كل الأجواء.

أنا " الأركانة " السعيدة الباسطة أذرعها وأغصانها لمعانقة الجميع طيورا ونمورا وزواحف وحشرات، فالسعادة نمط حياة الشجر...

أنا " الأركانة " وهذه أرضي وكل العالم حيي وهذه هي هويتي الأولى والأخيرة."

13 يوليوز 2008

حديقتي مملكتي

أرى ما أريد من الروح: وجه الحجر
وقد حكه البرق، خضراء يا أرض...
خضراء يا أرض روحي
أما كنت طفلا على حافة البئر يلعب؟
ما زلت ألعب....
هذا المدى ساحتي، والحجارة ريحي
****
أرى ما أريد من السلم... إني أرى
غزالا وعشبا، وجدول ماء...
فأغمض عيني:
هذا الغزال ينام على ساعدي
وصياده نائم، قرب أولاده في مكان قصي

شعر: محمود درويش
"أرى ما أريد"

لا شيء يمكنه النيل مني.

لا شيء يمكنه هدمي أو تقويضي.

لا شيء على الإطلاق... ما دام لي ملاذي، ما دامت لي حديقتي، مملكتي، خزاني من السعادة المتجددة وذخيرتي من القوة على الوجود والخلود.

في حديقتي لا يتطلب الأمر جهدا، فأنا فوق الزمان والمكان، فوق الطاعة والعصيان، فوق الربح والخسران...

في حديقتي، لا شيء يحدني، فانا فوق الحدود.

في حديقتي، كل شيء في المتناول...

من هذا العلو الشاهق، أطل على حديقتي: من شرفة "**باب الريح**"، فتبدو لي كل القمم الجبلية تحتي راكعة ككثبان رملية طيعة في يد الريح والتعرية...

وحين أنشد السكينة، أنزل إلى أسوار "**سقالة**" وأقرفص على أبراجها، أحاور أسراب النوارس وهي تحلق ثابتة في مكانها مباشرة فوق رأسي، دون خفق جناح، لتحميني بأجنحتها المشرعة من ضربة شمس محتملة. حتى إذا ما اشتد بي الحر،

سعيت لظلال شجرة "**الأركانة**" أو للاستحمام تحت الدفق الأبدي لشلالات "**أوزود**" الفردوسية. وإذا ما عطشت، عرضت فمي لغدائر "**رأس الماء**" أو غرفت بكفي الماء من "**عين اسردون**" ، أتذوق هذا وأقارنه بذاك وأختم بأحلاهما...

وحين يبلى جلدي ويهترئ، أتجدد في مياه "**مولاي يعقوب**" وإذا ما نفذت ذخيرتي من الطاقة والحرارة،تعيدني كثبان "**مرزوكة**" الرملية الحارقة إلى شبابي وحرارتي ونشاطي...

وحين ترتفع درجة أنانيتي، انزل إلى "**ساحة جامع الفنا**" حيث تقفز القردة على رؤوس المتفرجين وتلتوي الأفاعي على أعناق من لم يجرب الخوف بعد ويسنج الحكواتي نكته الجديدة وطرائفه المرتجلة من شخصيات المتفرجين الواقفين أمامه...

حتى إذا ما اردت العودة إلى ذاتي ثانية، قصدت "**مغارة الريح**" ، **فريواطو**. فأنزل من الفوهة إلى داخل الجبل أعد السبعمئة درجة نزولا. مع كل درجة أسفل المغارة في قلب الجبل، أنزل درجة أسفل المغارة في أعماق ذاتي. مع كل درجة أسفل المغارة يزداد إحساسي بلسع البرودة، ومع كل إصرار على التوغل في ذاتي، يزداد شعوري بالخفة، بالسعادة...

لكنني لا أنام إلا بعد حوار مع إيقاع تنفسي ، أستحضر معه كل الإيقاعات: "**العرفة**" و"**الهيت**" و"**الكناوي**" و"**احواش**" و"**أحيدوس**" و"**الكدرة**" و"**العيطات**"... فلا انتبه إلا وقد أخذني النوم على بساط سحري إلى حيث كنت دائما وأبدا: في حديقتي، مملكتي.

تازة، غشت 2005

حلم عصفور

ألا يا طائرَ الفِردو س قلْبي لك بستانُ
ففيه الزهرُ والماءُ وفيه الغصن فينانُ
وفيهِ منكَ أنغامٌ وفيه منكَ ألحـــانُ
وللأشجـار أوتارٌ ونايات وعيـــدانُ

عبد الرحمان شكري

أمس، حلمتني عصفورا واقفا على الأسلاك العالية، استحم تحت الشمس وأفلي ريشي من الطفيليات. حتى إذا تزودت من الشمس بالحرارة اللازمة، غادرت الأسلاك وحلقت في الأعالي لتصير الدنيا تحتي خريطة صغيرة تجري فيها الأنهار هنا وتنبسط فيها السهول هناك وترتفع فيها الجبال هنالك بين الغمام...

أمس، حلمتني عصفورا طليقا آكل مما شئت من الحقول وأتسلى بسذاجات البشر الذين يعتقدون بأن الأرض خلقت لهم وحدهم والماء لهم وحدهم والزرع لهم وحدهم وقد نصبوا لتخويفي من الاقتراب من الحقول **"فزاعات"** من عيدان وأقمشة!

كنت أقف على أعواد **"الفزاعات"** وانقر سنابل الزرع وأتسلى بفرق حراسة الحقل تجري نحوي بجنون وتدوس السنابل التي جاءت خصيصا لحراستها من العابثين فقط لإبعاد عصفور صغير عن غذائه. كنت ألزم مكاني فوق **"الفزاعة"** حتى إذا تقلصت المسافة بيني وبين الهاجمين طرت فوق رؤوسهم نحو **"فزاعة"** أخرى وراء ظهورهم لإتمام غذائي.

تساءلت، بمنطق العصافير:
- ترى لو كان للبشر أجنحة، لصادروا السماء والهواء أيضا!

حتى وهم بلا أجنحة، يتفنن البشر في نصب الفخاخ لعصافير قد ينتبهون لوقوعها في الشراك وقد لا ينتبهون لذلك، قد يشوون لحمها و يأكلونه وقد يعافونه ويرمونه. ومع ذلك ينصبون للعصافير الفخاخ ويتفاخرون بعدد الضحايا من صغار الطيور القتيلة بين أيديهم.

تساءلت كثيرا وببراءة العصافير دائما:
- لو قدرت للبشر الحياة بالأجنحة ومعاينة سلوكهم من عل، ترى هل كانوا سيتغيرون؟

الرؤية من فوق مختلفة تماما.

من فوق، يتراءى البشر بحجم أعواد الثقاب: يجرون وهم يعتقدون أنهم يطيرون، يتكلمون وهم يعتقدون أنهم يطربون، يضحكون وهم يعتقدون أنهم سعداء، يلتصقون بالأرض وهم يعتقدون أنهم اختاروا الحياة مشيا على الأقدام...

لو قدر للبشر تجربة الحياة في الأعالي، لأدركوا أن القاعدة هي الحياة بالأجنحة ولتذكروا العقاب الذي طالهم عند بداية الخليقة يوم خلعت الأجنحة عن ظهورهم ونتف الريش عن أجسادهم وألقى بهم لمواجهة مصيرهم على الأرض. منذ ذلك اليوم السحيق، تعلموا نصب الفخاخ ومعاداة العصافير بدل تنمية أجنحة جديدة وريش جديد...

لو قدر للبشر تجربة الحياة في الأعالي لتخلصوا من سذاجات التفكير الأرضي. فحين تصير طائرا، لا يبقى ثمة عائق يحد من انطلاقك. حين تكون طائرا فأنت بالضرورة حر طليق.

العطش؟

العطش ليس مشكلة بالنسبة للعصافير فقطرة ماء تكفي.

الجوع؟

حبة زرع تكفي.

السكن؟

كل أغصان الشجر تتطابق مع معايير السكن اللائق.

"مدرسة السماء" مختلفة تماما عن **"مدرسة الأرض"**. مدرسة الأرض تجزيئية يقضي فيها الإنسان معظم حياته يجمع الأجزاء والتفاصيل ليفهم بعد مرور جيل من الزمن كيف تسير الأمور. أما مدرسة السماء فتنجب عصافيرها عارفة بمجرى الأمور وتبقي لهم فرصة الاستمتاع بالتفاصيل...

حين أدركني الصباح مع رنين المنبه قرب سريري ، حاولت جاهدا أن أحافظ على خفق أجنحتي في دماغي وعلى خفق الحرية في فؤادي وعلى دبيب وجدان العصفور الذي كنته في حلمي ولو لثوان كي استأنس بهما حتى إذا ما احتجتهما لاحقا في لحظات الضيق شغلتهما سعيا للخلاص. كان الإحساس رائعا، أروع من أجنحة الحلم ذاتها: أن تتحرك الأجنحة والمراوح والمحركات في الصباح الباكر داخل دماغك فتبدو وأنت تتقدم رأسا في الفضاء الفسيح اللامحدود كمكوك أسطوري يتجه نحو كواكب أخرى، نحو شموس أخرى، نحو مجرات أخرى...

16 يوليوز 2006

مدرسة الحرية

"إن الأمة المستعبدة بروحها وعقليتها لا تستطيع أن تكون حرة بملابسها وعاداتها."

جبران خليل جبران

اتكأ الشاب بمرفقه على مكتب مديرة المدرسة وقال لها:

- قرأت مرة أنه لا يستحق الحياة من لا يجيد ثلاثا: "**السباحة**" و"**السياقة** "و"**القراءة**". ولما رأيت اللافتة التي علقتموها على أهم الشوارع وكتبتم عليها" **كيف أكون جديرا بالحياة**"، جئت إلى مؤسستكم.

قاطعته المرأة:

- ولكنك لن تتعلم هنا شيئا مما قيل لك وما تقوله لي الآن.
- لماذا؟
- نحن لا نعلم الناس **كيف يحافظون على حياتهم**. نحن نعلمهم **كيف يستمتعون بالحياة مهما قصرت**.

ارتسمت على محيا الشاب علامات الدهشة السعيدة:

- هل تقصدين أن مؤسستكم خاصة **برياضات الدفاع عن النفس؟**

فأجابته المرأة بجدية ظاهرة:

- مؤسستنا تهتم بما يتجاوز هموم العوام من الناس: **الدفاع والهجوم، الحياء والوقاحة، الخير والشر**... إن مؤسستنا تهتم بالحرية وحدها وتشحذ في المنخرطين قيم الحرية وغايات الحرية وتدربهم على أدواتها. إن مهمتنا هنا في هذه المؤسسة هي **"صناعة الأحرار"**.

تحمس الفتى ورمش مهتما:

- أنا أيضا أريد أن أكون حرا. هل يمكنني تحقيق هذه الأمنية في مؤسستكم، **"مدرسة الحرية"؟**
- هذه هي المهمة التي وجدنا من أجلها. لكنك لم تقل لي **لماذا تريد أن تكون حرا**.

اندهش الفتى أمام سؤال لم يطرحه أبدا على نفسه:

- كل الناس تعشق الحرية !

قاطعته واضعة سبابتها على صدره:

- أنا الآن أخاطبك أنت وحدك ولا يهمني رأي غيرك.

هز كتفيه ورفع كفيه حائرا.

واصلت أسئلتها التي لم تطرح عليه في يوم من الأيام:

- هل تقرأ؟ هل تكتب؟ ترسم؟ ترقص؟ تمثل؟...

أجاب الفتى نافيا بالقطع.

وضعت يدها على كتفيه مقتربة أكثر:

- والآن، ألا زال يدهشك سؤالي **"لماذا تريد أن تكون حرا"**؟

انفجرت أسارير الفتى وهو يدرك أن حظه هذه المرة قاده إلى حيث كان دائما يحلم بالدخول. لذلك قالت له:

- إنه لا يمكنك أن تكون حرا ما لم تكن تجيد التعبير عما يختلجك، ولا يمكنك أن تكون حرا ما لم يكن لديك وعي راسخ بأن كل شيء ممكن في هذه الحياة، ولا يمكنك أن تكون حرا ما لم تتشكل لديك قناعة بأن كل ما حواليك مادة خام تنتظر منك أن تشكلها في قالب جميل...

ثم ختمت جادة:

- لن تكون حرا إلا بهذه الثلاثة: **جودة التعبير عن الذات، الإيمان بالممكن، والقدرة على إبداع الجمال.**

تحررت عقدة لسان الشاب، أخيرا:

- وهل تضمنون تخرج المنخرطين في مؤسستكم أحرارا؟

أجابته مؤكدة:

- هذا ليس مختبرا نجرب فيه ملاحظاتنا وفرضياتنا. هذه مؤسسة قائمة تحقيق العروض التي ترفعها شعارا. وكمنخرط جديد، سأصطحبك في جولة بين مرافقها حيث تتم الحصص الأخيرة للتداريب الأخيرة لأن اليوم هو يوم تخرج الفوج الأول. آنذاك سترى بعينك ما تسمعه الآن بأذنك.

أمسكت المرأة معصمه برفق وقادته عميقا بين مرافق البناية نحو الأوراش حتى إذا ما وصلا إلى الباب الأول للورشة الأولى، قرأ لوحة صغيرة فوق الباب كتب عليها: " **باب الخلوة**". أطل من المربع الصغير وسط الباب، فلم يرى شيئا في الداخل غير الظلام فسألها عن وظيفة المكان فقالت:

-" إن مهمتنا في هدا المكان هي **"إرجاع المنخرط إلى الطفل داخله"** كي يسهل تحريره. و**"باب الخلوة"** هو أول حلقات تحرير المنخرطين. **هنا في هذا الظلام، ستعود إلى ذاتك**."

ثم واصلا التجول قبل التوقف أمام الباب الثاني، " **باب الخيال**"، لتقول:

-" هذا الباب هو الحلقة الثانية بعد الخلوة. وهنا ستبدأ آفاق الرؤية في حياتك بالتمدد والاتساع حتى لا يشملها فضاء من فضاءات الكون".

ثم صعدا الدرج حتى وصلا سلسلة من الأبواب كتب على كل منها داخل لوحة صغيرة نوعية النشاط الممارس داخلها وتكلفت المرأة بالشرح والتبيين:

-" بعد البابين السابقين في الطابق السفلي، هنا **"باب اللمس"** ويتمرن في هذه الورشة المنخرط على تنمية حاسة لمسه فيتعرف في الظلام خشونة الجدار ونعومة الحرير وبرودة الأرض... أما هناك ف " **باب التذوق**" وهو باب الورشة التي ينمي فيها المنخرط في الظلام القدرة على التمييز بين الأذواق فيستمتع بحلاوة العسل وملوحة الجبن وحموضة اللبن... أما هنالك ف **"باب الشم"** وهي ورشة في الظلام أيضا لتنمية متعة الشم واللذة الأنفية فيستنشق المنخرط أشياء أخرى مهمة للحياة والاستمتاع بالحياة غير الهواء فينعم بشم رائحة الشاي المنعنع ورائحة اللحم الطري ورائحة الموز المقشر... وهنالك، على اليسار، **"باب الإصغاء"** وهو باب ورشة خاصة بالإيقاعات تتجاور هنالك، على اليسار، مع **"باب الإلقاء"** حيث يستمتع المنخرط بقدرته على الإلقاء في كل طلباته وعلى الغناء في كل نداءاته ويستمتع بقدراته على جعل كل أشكال التواصل جميلة وإيجابية ومحبوبة".

ثم قدمته لصعود الدرج نحو الطابق الموالي حيث توقفا أمام أربعة أبواب أخرى:
-" هنا "**باب التصور**". وكما تعلم فالتصور يختلف عن التخيل من حيث القدرة على التحقق على الأرض. لذلك، ففي "**باب التصور**"، يستمتع المنخرط بتصور وأداء أدوار ومواقف وحالات متجددة. أما هنا ف "**باب النظر**" وهو، كما ترى، مضاء بنافذة تطل على منظر طبيعي خلاب يمكن المنخرط من الاستمتاع بصريا بكل ما حواليه من خطوط وألوان وأشكال وموازين وزوايا نظر وظلال وأنوار... أما في هذا الباب، "**باب الحركة**"، فيعي المنخرط الحركات الجسدية التي يتواصل بها بعدما كان من قبل يجهلها، فيستمتع بالتفنن في اختيار المشية الجميلة وتجريب الإيماءات الجذابة والذوبان في الرقص المعبر... أما في هذا الباب الأخير، "**باب الفروسية**"، فكما تسمع من خلال أنين اللذة الصداحة، فهو باب ورشة خاصة بالانطلاق ويمكنك أن ترى من خلال المربع الصغير وسط الباب كيف تمتطي النساء جيادا طليقة وكيف يمتطي الرجال خيلا جموحة".

اعتقد الشاب أن الأبواب الأربعة الأخيرة هي نهاية الرحلة بين طوابق هذه المدرسة العجيبة لكن المرأة دعته للصعود نحو السطح لحضور حفل تخرج الفوج الأول من الأحرار.

على السطح، عشرات من الشباب بوجوه سعيدة وإيماءات جذابة يتصافحون ويتعانقون ويتبادلون التحايا بأفضل منها صمتوا جميعا عند صعود رجل في منتصف العمر تشع الطاقة من محياه إلى المنصة لقراءة ورقة يبدو أنه أعدها خصيصا لهذه المناسبة:

" أيتها المشاعل الغدوية الجميلة، في عيد تخرجها من «مدرسة الحرية».
قد يفتخر البعض بممتلكاته العقارية والمنزلية وقد يفتخر البعض الآخر بعلاقاته المهنية والاجتماعية، وقد يفتخر البعض المتبقي بانتماءاته العائلية والحضرية والقبلية... أما أنا فافتخر بشيء مختلف تماما: إنني أفتخر دائما بكوني حظيت بشرف مجالسة الأحبة خلال احتضارهم وسمعت على لسان أكثرهم "سر الحياة".
إن المرء، عند احتضاره، لا يذكر شيئا مما يفتخر به المرء خلال حياته: لا الممتلكات ولا العلاقات ولا الانتماءات... عند الاحتضار، لا يفكر المرء سوى في اللحظات المضيئة التي عاشها في حياته. وحدها اللحظات السعيدة تعينه على الانتقال إلى العالم الآخر سعيدا مطمئنا، راضيا مرضيا.
أيتها المشاعل الغدوية الجميلة، في عيد تخرجها من «مدرسة الحرية». إنكم في هذا السن تجمعون اللحظات السعيدة وتراكمون الأفراح والمسرات في ريبرتوار ذاكرتكم، وقد يكون هذا الحفل الذي اجتمعنا لتخليده هو اوج ما وصلتم إليه من سعادة. كما قد يكون بداية عصر السعادة في حياتكم. لكنه، حتما، سيبقى أخلد اللحظات في حياتكم وأسعدها. وستكون لكم في المستقبل دشا مطهرا من كل غبن أو إحباط. سيكفيكم الضغط على الزر الذي سيعيدكم سنين على الوراء إلى هذه اللحظة الفردوسية وستتلاشى أمامكم كل العوائق وتنفرج أمام أعينكم كل العتمات...
أيتها المشاعل الغدوية الجميلة، في عيد تخرجها من «مدرسة الحرية». طوبى لكم بهذا النجاح وطوبى لكم بهذه اللحظة السعيدة ودامت لكم المسرات".

ثم بدأ الشبان والشابات في الصعود فرادى إلى المنصة للتوشيح بميداليات نقش على سطحها صور دلافين وللتتويج بأكاليل صغيرة من الورود.

سأل الشاب الزائر مرافقته:

- وماذا بعد هدا التوشيح؟ ماذا سيفعلون بهذا التتويج؟

فأجابته المرأة:

- الآن وقد صاروا أحرارا، سيمكنهم الطيران. إن هذا التكوين وهذا التوشيح وهذا التتويج لا يسمح لهم بالنزول إلى الأرض قصد البحث عن فرصة عمل في مقاولة من المقاولات بل يحقق لهم حلم العمر، حلم الفراشة: "**الطيران**".

في تلك الأثناء، كان الشاب يشاهد منظرا خرافيا: الخريجون من الشباب حوله يتحولون إلى دلافين على سطح العمارة ويقفزون سقوطا حرا في الهواء سابحين في زرقة السماء بمتعة دلافين طليقة تماما كما يتمنى كل إنسان في خلوته.

صرخ باندهاش:

- هل تمكنهم الزعانف من الطيران؟

فأجابته المرأة واثقة ومطمئنة:

- الزعانف والأيدي والأجنحة سواء: قد تصلح للسباحة والرسم والطيران. ليست الزعانف ما يعيق الطيران وإنما العوائق هي ما يحمله الإنسان داخله، وليست الزعانف ما يساعد على الطيران وإنما الإرادة على التغير والتصميم على تحقيق حلم الطيران.

كانت المرأة توسع أفق الرؤية أمام عينيه بينما كان هو يستعجل النزول إلى الطابق الأول نحو غرفته الأولى، "**باب الخلوة**"، اقتفاء بخطى الدلافين الطليقة.

15 يوليوز 2008

هكذا تكلمت سيدة المقام الأخضر

" إذا دلت الشجرة على عمل صاحبها وعلى دينه ونفسه، دل ورقها على خلقه وجماله وملبسه، وشعبها على نسبه وإخوانه واعتقاداته، ويدل قلبها على سرائره وما يخفيه من أعماله، ويدل قشرها على ظاهره وجلده وكل ما تزين به أعماله، ويدل ماؤها على إيمانه وورعه وملكه وحياته. لكل إنسان قدره"

ابن سيرين
- تفسير الأحلام الكبير-
الباب 43: في رؤية الأشجار المثمرة،
ص:357

جلساء صديقي البشير كلما اقتحمت دائرتهم الصغيرة حول مائدة حبلى بالأوراق والأقلام في أحد هذه المقاهي المطلة على بانوراما الجبال المشجرة المقببة بالثلوج، رنت في مسمعي كلمات غامضة من معاجمهم الخاصة: كشوفات، موجات الدماغ، التركيز، " باب الحكمة "، الوصايا العشر لسيدة المقام الأخضر...

سألت البشير، ذات مرة، عن هذه السيدة ذات المقام الأخضر فأومأ إلى مكان ما قبالتنا:

- هي تلك.

لم يكن في المكان الذي أومأ إليه سيدة. قلت:

- أين هي؟

فأجاب بتلقائية:

- الشجرة، ألا تراها؟!

صدمت.

كنت أتوقع سيدة حقيقية ذات عطاء من نوع خاص وإلا فما جدوى كل هذه التجمعات والأوراق والقدسية التي يلفون بها نبتة، شجرة؟

فكرت في البحارة الذين يسمون زوارقهم بأسماء عشيقاتهم وقلت للبشير:

- هي سيدة من؟ أنتم خمسة رجال وهي سيدة واحدة!...

إمتعض البشير من مزاحي:

- هي ليست سيدة أحد. هي سيدة الحكمة ولا تقابل غير الحكماء من البشر ولا تتواصل إلا مع من تخطى " باب الحكمة ".

سألته:

- وأين موقع هذه الباب من الوجود؟

انتبه البشير بسرعة إلى أن أفضل طريقة لمحاورتي مع الحفاظ على أعصابه هي أن يتعامل معي كإنسان أمي لا يجيد غير الثقة والإصغاء ثم قال:

- " باب الحكمة" هي الباب الوحيدة المؤدية إلى هذه الشجرة، سيدة المقام الأخضر، حيث ينعم الداخل إليها بالقوة على التغيير والتغير. وهذا هو الدرس الأبدي الذي تقدمه السيدة لكل من قابلها في مقامها الأخضر وتطهر بدبيب الدرس في كل كيانه.

بدأت أوافقه لإطالة مدة الحديث:

- هل هو من أنواع الدراسة عن بعد؟

أجاب:

- نعم، دراسة عن بعد مع شرط مهم: الخلوة، فكل الطلاب الذين يقابلونها ينعمون بالخلوة لأن الدرس يقتضي التوحد ويشترطه. ولذلك ففي رحابها، لكل حقه، لكل وقته ولكل خلوته ولو كان هناك آلاف الطلاب في آن واحد...

أخذني من كم قميصي ثم تقدمنا نحو الشجرة التي أشار إليها في بداية اللقاء: شجرة يشرئب جذعها القوي من الأرض المعشوشبة ملتويا على ذاته التواء قبل أن يتفرع إلى أغصان لا نهائية تختفي تحت حفيف الأوراق الرشيقة والثمار الخضراء الواعدة. ثم قال:

- هذه هي الشجرة وداخلك "باب الحكمة ".

ظللت أنتظر تباشير ابتسامة على محياه تفضح مزاحه، آنذاك انهال عليه بالهزء والسخرية لكنه واصل حديثه بالشرح والتفصيل:

- هل تعلم أننا والأرض نتواصل بالطاقة ونتبادل الطاقة؟

لم أجبه. ظللت أرقب إيماءة تفضح زيف جديته لأنقض عليه.

استطرد:

- إن الحقل المغناطيسي للأرض يشتغل على ارتجاج ثابت هو 7.83 هرز. فلو استطعت خفض موجات دماغك إلى هذا المستوى فستكون في تناغم مع الحقل المغناطيسي للأرض: خزان القوى والطاقات. وحده الوصول إلى هذا التناغم قادر على فتح :" باب الحكمة " في وجهك لدخول المقام الأخضر ومكاشفة السيدة...

انحنينا قليلا لدخول دائرة الظل المتمايل غنجا وتدللا للشجرة التي أضحت خضرة أغصانها فوق رؤوسنا قبة خضراء عظيمة تكاد تحجب القبة الزرقاء الأخرى : السماء. جلسنا على العشب وأسندنا ظهرنا إلى جدع الشجرة. واصل البشير حديثه:

- بإمكانك حفض موجات دماغك دون آلة معدنية لضبط القياس. حسبك أن تتمدد على ظهرك في أي مكان في الدنيا وتتنفس بطيئا وأنت تذكر ألوان قوس قزح واحدا واحدا وتتحسس كل لون في أشياء تحمل نفس اللون في ذاكرتك. بعد ذلك مر إلى اللون الموالي. حتى إذا ما استعادت ذاكرتك كال ألوان الطيف واستشعرتها، آنذاك تصور نفسك وصلت إلى سلم من واحد وعشرين درجة نازلة إلى الظلام. تأن في نزولك واستمتع بكل درجة قبل الانتقال إلى الدرجة الموالية. حتى إذا ما وصلت إلى الباب في نهاية السلم، " باب الحكمة "، تأمله جيدا وتفحص تفاصيله طويلا قبل دفعه لدخول المقام الأخضر: مقام السيدة، مقام المكاشفة، مقام الحقيقة.

في غرفتي، استعدت حديث البشير عن هذه القدرة الخارقة المعطلة التي أملكها منذ صباي ولم أستعملها أبدا: عن الدراسة عن بعد التي تأطرها الشجرة ويستفيد منها آلاف الطلبة في آن واحد وكل في خلوته ممددا على فراشه في غرفة نومه!...

تمددت على ظهري وبدأت مراقبة مظاهر التو تر في كل أنحاء جسدي لفسخها: قلبت كفاي للأعلى وباعدت يداي ورجلاي عن باقي جسمي وتخلصت من الحزام ورباط العنق والجوارب وأغمضت عيناي في سكينة.

بدأت التنفس بإيقاع بطيء وأنا أتذكر ألوان قوس قزح الست: الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجي. أستعيد في ذاكرتي اللون الأول، الأحمر، واستحضر التفاحة الحمراء اللون أديرها أمام عين عقلي يمينا ثم يسارا شكلها التفاحي يضفي على حمرتها بهجة لا تضاهيها فيها لا حمرة البرقوق ولا حمرة الشهدية، تكفي عضة منها لتجزم بأن لحمرة التفاح امتداد في مذاقها وحلاوتها ... ثم أمسح الصورة كاملة بعد ثلاثين ثانية لاستحضار اللون الموالي وأستشعره حتى إذا ما استعادت ذاكرتي كل الألوان، تصورت نفسي أنزل سلما من واحد وعشرين درجة تقودني إلى العتمة.

أنزل الدرجة الأولى وأنصت لهذا الهدوء حوالي: لا صاعد ولا نازل. أنا الوحيد في هذا السلم. ثم الدرجة الثانية. أستريح. ثم الثالثة فالرابعة، ثم الأخيرة.

أخيرا، أجد نفسي أمام باب.

القشعريرة تعتريني فجأة.

يدي ترتجف من الخوف.

مددت يدي المرتجفة إلى الباب.

ألا يمكن أن يكون الأمر.. خدعة؟

الخوف ينخرني من أسفلي إلى أعلاي.
وإذا ما كان وراء الباب وحش من الوحوش الكاسرة؟
وإذا ما كان وراء الباب غول من الغيلان الخرافية؟
وإذا ما كان وراء الباب جني من الجن الحانقة؟
الخوف يخنقني، يقتلني، يذيبني...
سحبت يدي وقطعت التجربة ونهضت من فراشي.
صارحت صديقي:
- لم أقدر على مواصلة التجربة. لم أجرؤ على دفع الباب...
فصاح، معاتبا:
- كيف تقطع تفكيرك وأنت على بعد سنتمتر من هدفك؟
- خفت، كنت أموت من الخوف....
قاطعني، غاضبا:
- خائف مماذا؟ ألست الذي وصف لك سبيل الوصول إلى " باب الحكمة"؟...
أحسست بالحرج. فأنا لم أقصد أنه حاول خداعي، أنا خفت من المفاجئة فحسب: خفت أن أكون قد أخطأت في مرحلة ما وأن العقاب ينتظرني عند الباب.
أمارات التفهم عادت لمحياه، فقال:
- حسنا، عاود الكرة ثانية ولا تنس أن من يخاف الحقيقة هم زمرة الغشاشين وأهل الخداع وضعاف النفوس. ثق في نفسك واقتحم الباب فلن تندم على شيء إذا لم تربح كل شيء.
في غرفتي، عاودت التجربة: التمدد على السرير، الاسترخاء، التنفس البطيء، استحضار الألوان واستشعارها، الوقوف عند السلم، النزول نحو العتمة، نحو الباب...
" باب الحكمة": باب خشبي ضخم أخضر يسر الناظرين بزخارف فردوسية ونقوش عجائبية على جوانب الإطار وكتابات تفنن الخطاط في نحتها على جسد الباب بأجمل الخطوط العربية، الخط الأندلسي:
" هذه جنتي فادخلوها آمنين"
لمست الباب الناعمة فطاوعت دفع يدي رغم ضخامة حجمها وقوة بنيتها فانفرجت العتمة واستنار الكون ووجدتني أتزحلق مقتربا من المقام الأخضر على متن بساط متحرك دوار لا يتوقف إلا تحت الظلال الوارفة لشجرة بسعة السماء، واستسلمت للدبيب يغمرني من أسفل قدمي إلى أعلى رأسي صعودا ونزولا:
" هذا هو عالمك المثالي. هذا هو عالمك الخاص بك وحدك. تعال إلى هنا متى شئت وستجد هنا كل العون الذي تحتاج إليه وكل الطاقة التي تنقصك. هنا كل زادك. حسبك الإصغاء إلى الوصايا العشر للمقام الأخضر واستشعاره فثمة كل قواك وكل طاقاتك:
أولا، عد إلى أصلك: شجرة كنت وشجرة ستصير.
ثانيا، تمسك بالأرض التي سرت فيها جذورك: تحيا وتحيي.
ثالثا، أكرم من قصدك طلبا للسكينة من الطير والأفاعي والنمور.
رابعا، أعط كل ما عندك ولا تتوقع استحسانا أو شكرا أو مكافأة من أحد..
خامسا، لا تدع للهزيمة سبيلا إلى نفسك وواصل نموك بعد كل مرة تقطعك فؤوس الحطابين.
سادسا، استرخ حتى وأنت في مهب الريح، حتى وأنت في قلب العاصفة...
سابعا، كن نفسك: فبقدر ما تعلو أغصانك في السماء بقدر ما تتجذر عروقك في الأرض.
ثامنا، تواضع . فلا يقصدك غير الضعفاء من الخليقة.
تاسعا، فكر أول ما تفكر على إشاعة ظلال حولك واعمل على توسيعها.
عاشرا، فكر في وقف انجراف التربة حواليك فلست منفصلا عما يجري في محيطك."
أدركتني اليقظة فرمشت منتعشا واستويت على حافة فراشي. دماغي ينتفخ وينتفخ كمنطاد عظيم يتأهب للإقلاع. التجدد يكتسحني. لأول مرة أستيقظ في حياتي. هذه يقظتي الأولى. لقد وجدتها! لقد وجدتها! لقد وجدت ضالتي! لقد وجدت قوتي! لقد وجدت حقيقتي! لقد وجدتها ولن أتخلى عنها! لقد وجدتها ولن يجرؤ على الوقوف في وجهي حاجز بعد الآن!...

11 ماي 2004

موعد مع الفرج

استيقظت مذعورا على رنين جرس المنبه المسعور.

قضيت وقتا مغمض العينين، أتلمس طريقي نحو مكان المنبه لأوقف الرنين الذي ينخر عظامي.

عشوائية حركات يدي قلبت أشياء كانت على جانب السرير لم أميز منها غير الصوت الزجاجي لكوب الماء وهو ينقلب وينكسر وتتشتت شظاياه في الظلام...

ربما، كان من الأجدى أن أفتح عيني وأبحث عن زر الكهرباء أولا.

ها هو الزر !...

أضأت المكان لأجد الساعة المنبهة وقد تكورت متدحرجة بعيدا نحو الباب.

أوقفت رنينها وخرجت للموعد الهام الذي برمجت المنبه لأجله.

وقفت عند باب البيت لأتذكر بأنني خارج بدون مفاتيح. الأمر الذي سيكلفني خسائر لحظة عودتي ما دام الباب الرئيسي حديديا ولن يرضى بأقل من نصفَ يومٍ من الهدم وإعادة البناء فضلا عن ميزانية الأعباء والتكاليف...

تذكرت أن المفتاح في حزام سروالي الذي تركته معلقا على المشجب وانتبهت، للتو، إلى كوني خارج من البيت بدون سروال.

رجعت إلى غرفة النوم وارتديت سروالي وقميصي وتأكدت أن المفتاح معي ثم هرولت إلى الباب ثانية متعثرا في زوج حذائي عند نهاية السلم لأتذكر أنني خارج من البيت بدون حذاء.

لبست حذائي بسرعة واستقمت لكن فقط لأضرب جبهتي مع الدرابزين.

رجعت إلى الحمام لمعاينة حجم الضربة على جبهتي في المرآة.

لم تترك الضربة جرحا أو تورما ولكن عيني كانتا حمراوتين وشعري الغزير مهمل ولحيتي بادية السواد...

غسلت وجهي ومشطت شعري ثم مررت الشفرة سريعا على لحيتي فأحسست بالانتعاش.

كم الساعة، الآن؟

نسيت ساعة يدي في غرفة النوم وعلي العودة من جديد للبحث عنها.

الساعة الآن الثالثة صباحا!...

لكن...

لماذا الثالثة صباحا؟!

ماذا سأفعل في هذا الوقت بالذات خارج البيت؟

ما الذي سيخرجني في هذا الوقت؟

لا جواب على بالي...

من الذي برمج المنبه على هذا الوقت، إذن؟

ليس في البيت يد ثانية تعبث بمواعيدي وأشيائي...

هل يمكن أن يكون المنبه الذي برمجته على الثالثة زوالا تعطل ولم يشتغل حتى الثالثة صباحا؟

ما الجدوى، إذن، من منبه في البيت يسقط مواعيدي ويخلق لي مواعيده؟

أمسكت بالمنبه غاضبا ورفعته إلى أقصى ما تحتمل ذراعي لأهوي به على الأرض. لكن عيناي تسمرتا على النافذة المشرعة قبالتي وقد توسطها القمر في كامل استدارته وسط هالة فضية أخاذة وأحسست بانتعاش جديد. انتعاش لم أعهده في مثل هذه الساعة المبكرة من اليوم وأحسست بنفسي أغرق في أزيز سعيد يدب في جسمي من رأسي إلى أخمص قدمي...

في هذه اللحظة بالذات، تملكني إحساس غامض بأن لي موعدا هاما ينتظرني وأن حياتي القادمة رهينة به وأنني سأؤرخ لحياتي الجديدة به فانتبهت إلى المنبه الذي كنت أرفعه بكلتي يدي فوق رأسي وضممته إلى قلبي لأُدَوْزِنَ دقاته على نبضات قلبي وإيقاع تنفسي...

في هذه اللحظات، أحسست بحجم القمر يكبر ويكبر وبشكله ينبض وينبض وبأنني صرت أكبر من حجمي، أكبر من بيتي، أكبر من كوكبي وأن القمر صار قلبي ينير الكون ويوزع المواعيد ويعد بالبشرى والفرح.

6 نوفمبر 2006

النصوص

العودة إلى البراءة

عالم حالم

عاشق

شرفة على القلب

الأرض تتكلم لغتي

زهرة الذاكرة وشراب الخلود

حديقتي، مملكتي

حلم عصفور

مدرسة الحرية

هكذا تكلمت سيدة المقام الأخضر

موعد مع الفرج

السيرة الذاتية لمحمد سعيد الريحاني

محمد سعيد الريحاني، كاتب ومترجم وباحث في الفن والأدب من مواليد 23 ديسمبر 1968، عضو هيأة تحرير **"مجلة كتابات إفريقية"** الأنغلوفونية ***African Writing Magazine*** والصادرة من مدينة بورنموث ***Bournemouth*** جنوب **إنجلترة**، عضو **اتحاد كتاب المغرب.** صدر له: **"الاسم المغربي وإرادة التفرد"**، دراسة سيميائية للإسم الفردي (2001) ، **"في انتظار الصباح"** ، مجموعة قصصية (2003)، **"موسم الهجرة إلى أي مكان "**، مجموعة قصصية (2006)، **"الحاءات الثلاث "، أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة** (صادرة في ثلاثة أجزاء على ثلاث سنوات 2006- 2007- 2008)، **"موت المؤلف"**، مجموعة قصصية (2010)، **"حوار جيلين"** (مجموعة قصصية مشتركة مع القاص المغربي **إدريس الصغير**) 2011...

له قيد الإعداد للطبع: "وراء كل عظيم أقزام" (مجموعة قصصية)، **"2011، عام الثورة"** (مجموعة قصصية)، **"التوازي والتعامد في مسارات القصة القصيرة بالعالم العربي"** (دراسة مقارنة)، **"المدرسة الحائية، مدرسة القصة العربية الغدوية"** (حوارات، بيانات، قراءات)، **"خمسون قصة قصيرة جدا"** (الحاء الأولى: **حاء الحرية**)، **"خمسون قصة قصيرة جدا"** (الحاء الثانية: **حاء الحلم**)، **خمسون قصة قصيرة جدا"** (الحاء الثالثة: **حاء الحب)...**

أشرف على الترجمة الإنجليزية للنصوص القصصية المكونة للقسم المغربي في أنطولوجيا **"صوت الأجيال: مختارات من القصة الإفريقية المعاصرة"** ***Speaking for the Generations*** التي أعدتها جامعة **أوليف هارفيه بولاية تشيكاغو** الأمريكية ونشرتها دارا نشر **"ريد سيه بريس"** و**"أفريكا وورلد بريس"** في **ترنتن** بولاية **نيو جيرزي** الأمريكية، يونيو 2010.

كما أشرف على ترجمة خمسين (50) قاصة وقاصا مغربيا إلى اللغة الإنجليزية ضمن أنطولوجيا **"الحاءات الثلاث: مختارات من القصة المغربية الجديدة"** وهو مشروع ثلاثي الأجزاء صادر في نسخته الورقية العربية على ثلاث سنوات: **"أنطولوجيا الحلم المغربي"** سنة 2006، **"أنطولوجيا الحب"** سنة 2007، و**"أنطولوجيا الحرية"** سنة 2008 تقصد منذ بداياته، تحقيق ثلاث غايات أولها **التعريف بالقصة القصيرة المغربية عالميا**؛ وثانيها التعبئة بين أوساط المبدعات والمبدعين المغاربة **لجعل المغرب يحتل مكانته الأدبية كعاصمة للقصة القصيرة في "المغرب العربي"** إلى جانب الجزائر عاصمة الرواية وتونس عاصمة الشعر؛ وثالثها **التأسيس ل"المدرسة الحائية"**، **"مدرسة" قادمة للقصة القصيرة الغدوية** عبر هدم آخر قلاع العتمة في الإبداع العربي **(الحلم والحب والحرية)** واعتماد هده **"الحاءات الثلاث"** مادة للحكي الغدوي التي بدونها لا يكون الإبداع إبداعا.

عنوان الموقع الإلكتروني: http://www.raihani.ma

العنوان البريدي: ص.ب 251، مدينة القصر الكبير 92150/ المغرب